إسهام في دعم علم السيمياء الحديث وعلمي الصوتيات والاشتقاق

الوحدة الأصلية بين اللغات
مظهر لوحدة إنسانية عريقة

نظرية: طريقة تبرز أسس هذه الوحدة

عبد العزيز بن عبد الله

مدير المجلة ورئيس تحريرها

علم السيمياء sémantique علم خاص بدراسة معاني الكلمات وتغيراتها وهو علم «حديث» عرف بأوروبا وخاصة بفرنسا عام 1883 وهو علم يكمل علم الصوتيات phonétique (أي العلم المختص بالاصوات والنطقيات) ، ويستهدف البحث عن جميع ظواهر اللغة بصفتها مجالي للتعبير عن خوالج الفكر البشري وهو يستبطن جانبا خاصا من هذه الظواهر هو تطور معاني الكلمات وقد ادرج عنصر جديد في هذا العلم هو التزامن synchronisme أي تزامن الكلمة وظواهرها بمعنى وقوع هذه الظواهر اللغوية في عصر من عصور التاريخ في دراسة صنيع الالسن واللهجات ، وبذلك ظهرت جوانب في هذا العلم تبلورت في السيمياء التزامني sémantique synchronique ونسميه نحن سيمياء «المباني» (1) وهو يستجلي كل ما له صلة في عصر من العصور بالرابطة التعبيرية القائمة بين الدال والمدلول ، اما السيمياء المتعلقة بالتطور التزامني sémantique diachronique او «سيمياء المعاني » فهو يهدف الى دراسة التغيرات الطارئة على معنى اللفظ اي استجلاء خاصية الظواهر اللغوية من ناحية تطورها الزمني . وقد تشعب هذا العلم منذ نحو اربعين سنة باتساع شبكة اهتماماته التي اصبحت لا تقتصر على دراسة الفاظ معزولة اي منفصلة عن مؤثراتها بل صارت تبحث في مجموعات لغوية تتصل بالنحو والاشتقاق والتراكيب اللفظية بناء على المدركات والمفاهيم واعتبارا لظواهر اجتماعية وبذلك برزت نظرية جديدة في اللغة عرفت بالستروكتورالية structuralisme تعتبر اللسان كمجموعة مرصوصة ترصيصا دقيقا تكون التعابير فيها مجرد تعاريف للنسب والصلات ومع ذلك فقد شعر اللغويون او الخبراء في اللسنيات linguistes بأن هذه الدراسات سوف تظل مشلولة اذا تحركت في قفص مقفل متجاهلة الروابط التي استوثقت في مختلف العصور بين الامم والشعوب واللغات واللهجات تلك الروابط التي تضفي على علم اللسنيات linguistique طابعا انسانيا شاملا ربما اعتبر من ابرز مظاهر الوحدة الاصلية بين البشر وهكذا ظهر علم السيمياء

(1) اخترنا هاتين الكلمتين وهما المبنى والمعنى لوجودهما في الاصطلاحات النحوية العربية .

العام sémantique générale الذي يرى في السيمياء المرتبطة بلغة ما من اللغات مجرد حالة خاصة ولم يعد علماء اللغة يرتكزون ـ حينئذ ـ في دراسة تطور التراكيب والاشتقاقات على عوامل تختص بلغة ما في بلد ما بل اضافوا الى ذلك عناصر طريفة مختلفة تتصل بالمؤثرات الاجتماعية والاقتصادية والمبادلات بين الامم وكذلك بالملابسات الشعبية اي عمل الشعب الذى يستأصل المترادفات الحوشية فتظل عاطلة بين دفات المعاجم ويخلق ويولد وينحت ويصفى مبرهنا على ان اللغة كائن حي تنشأ ولائده لتترعرع وتهرم تلقائيا مسايرة مقتضيات التطور والحاجيات المتجددة واذا كان في وسع المجامع والهيئات اللغوية توليد لفظ جديد للتعبير عما يستجد من المدركات فان هذا اللفظ انما يعيش غالبا في نطاق علمي محدود (اي نطاق المصنفات العلمية التي يتداولها الاختصاصيون) اما الحياة الحقيقية فهي تلك التي تنبثق من التجربة العلمية بواسطة الاجهزة الحيوية في الامة كالصحافة والاذاعة ووسائل التعميم والتبسيط المختلفة .

لذا فان علم السيمياء اصبح يهتم بتاريخ تطور اللفظ بالنسبة لتاريخ تطور شعب ما منذ حضارته البدائية اعتبارا لعلاقاته مع شعوب اخرى وبذلك امست كثير من الظواهر والتطورات الاجتماعية تصحح ارتكازا على هذه القاعدة بينما كانت الدراسة المنفصلة لكلمة ما هي المتحكمة في تكييف معطيات التاريخ والعلائق البشرية وهذا الجانب يهتم به علم هو sémiologie يختص بدراسة « السمات » في المجتمع (2) .

والواقع ان القدماء من غربيين وعرب اهتموا بهذا الجانب من علوم اللسنيات منذ اكثر من الفي سنة فقد افرد الفيلسوف افلاطون الموضوع بالتاليف في كتابه « Cratyle » (باريز 1931 ـ مجموعة الجامعات الفرنسية) في شكل حوار بين استاذه سقراط واثنين من رجال الفكر هما Hermogène وكراتيل Cratyle وقد اكد الفيلسوف « ان للاشياء جوهرا ثابتا وقارا وان الكلمة اداة للتعبير عن الحقيقة وبذلك يكون بين الكلمة وحقيقتها الدالة عليها (اي بين الدال والمدلول والمبنى والمعنى او الاسم والمسمى) تلاؤم طبيعي justesse naturelle فلهذا كان اللفظ يعبر عن جوهر الاشياء وكانت الكلمة تبرز اول ما تبرز في وسط بدائي فطري وهذا هو ما حدا سقراط الى القول بأن المجتمع البدائي الذى يصفه بالوحشي هو المنبع الاصيل للكلمة ويقول Louis Méridier (الاستاذ في كلية الآداب بجامعة باريز) لدى تعليقه على هذه الظاهرة (ص 19) « ان العلم الحديث يفسر ذلك بالقرابة القائمة بين اليونانية والسنسكريتية او اي لغة اخرى هندية اوربية ، وقد اشار افلاطون الى ما تمتاز به الحروف من خواص تعبيرية اي علاقة طبيعية مع المدلول والكينونة ولذلك كانت هذه الحروف ادوات للتعبير عن ظواهر شتى كالحركة والخفة والطموح والاضطراب والتوقف والانزلاق والاستبطان والعظمة والطول والكورية وغير ذلك بحيث نجد كثيرا من الشبه بين اللغات انطلاقا من هذه الظاهرة الانسانية الاصيلة .

وقديما ربط علماء اللغة العرب بين هذه المعطيات وبين ما سموه بعلم السيمياء اي علم اسرار الحروف (3) وقد تعددت في ذلك دراسات الحاتمي والبوني وابن خلدون كما افرد روني كينون (في كتابه المذكور) فصلا خاصا لهذا العلم ابرز فيه « الجوهر والنسب العددية التي تعبر عنها الكلمات » ولاحظ ان لانتقال كلمات من اقاليم الى اخرى بحكم التبادل بين البشر علاقة وطيدة مع قيام مراكز اشعاعية في مختلف هذه الاقاليم .

---

(2) سنحلل بحول الله في عدد مقبل مقومات وتطورات هذا العلم الجديد

(3) يرى René Guénon في كتابه (رموز اساسية للعلم المقدس)
« Symboles fondamentaux de la Science sacrée » (Edition Gallimard, 1962)
ان كلمة سيمياء لا يظهر انها عربية صرف وانها مشتقة من كلمة Semeia اليونانية بمعنى العلامة وهو واهم في ذلك لان كلمة سيمياء العربية مشتقة من السمة (سيماهم في وجوههم) بمعنى العلامة والآية اي signe ايضا .

وقد كان للنحاة العرب منذ صدر الاسلام نظريات تتصل بعلم السيمياء الحديث من وجوه مختلفة حيث حاولوا ابراز خواص كل لغة من حيث «مبانيها» ومن حيث «معانيها» .

ونشير هنا الى ما حققه احد كبار الاختصاصيين في اللهجات وهو كوني A. Cuny (4) من وجود تشابه عميق بين اللغات الهندية الاوربية اي الآرية من جهة واللغات الحامية (كالمصرية القديمة) والسامية (كالعربية والعبرية) من جهة اخرى ، قد لاحظ ان وحدة استعمال صيغة المثنى مثلا في هذه اللغات دليل قاطع على القرابة الاصيلة بين هذه المجموعات اللغوية ثم ذهب ابعد من ذلك فابرز طابع التجانس والتشابه بين التطور الذي حققته اللغة اليونانية انطلاقا من اللغة الهندية الاوربية وبين تطور اللغة السامية ابتداء من الثنائية الحامية والسامية ولم يخف الاستاذ كوني (ص 33) اصالة التراث الموحد العريق في عهود ما قبل التاريخ بين العربية الفصحى ولغة شعب اركاديا Arcadie اليوناني (وهو شعب من الرعاة الذين جمعتهم وعرب الجاهلية روح البداوة الخلاقة) ثم اكد (ص 48) انه نظرا للمظاهر العامة في مسيرة التطور يمكن القول بأن تراء اللغة الهندية الاوربية هو ـ نسبيا على الاقل ـ من مخلفات العهود السحيقة اي انه منبثق من ذلك التراث الاصيل الذي تركته المجموعات السامية والحامية » ثم ختم سلسلة دراساته الدقيقة (ص 64) مؤكدا ان مجالي التشابه والتوافق الملحوظة بين اللهجات الهندية ـ الاوربية والسامية والحامية حجة حتمية على وجود وحدة لغوية اصلية » .

* * *

ويرى كثير من علماء اللسنيات ان ابناء نوح حاولوا منذ ازيد من خمسة آلاف من السنين اقامة برج سامق في بابل Babel للوصول الى السماء ولكن الله عاقب هذا الطموح الاخرق بخلق بلبلة في لغات كانت قبل ذلك موحدة ومهما تكن قيمة هذه « الاسطورة » فلا يبعد ان تكون البشرية بعد الطوفان قد انحسرت ابعادها وانحصرت تخومها واتحدت وجهاتها ولغاتها فبرزت منذ ذاك كثير من اوجه التشابه بين لغات البشر من الآريين والساميين والحاميين ولا شك ان الانسان الاول قد انطلق في نطقه البدائي من ثنائيات صوتية ردد فيها الاصوات الطبيعية في حروف اصبحت مع الزمن جذورا مشتركة بين المجموعات البشرية المذكورة وبذلك يكون منطلق كل لفظ من حرفين اساسيين رتيبين او معكوسين انضافت اليهما في اواخر المطاف سوابق ولواحق او صدور وكواسع (préfixes et suffixes) تتسم بطابع اقليمي يخضع لمؤثرات جهوية خاصة وهذا هو سر الاختلاف المتزايد مع الزمن بين لهجات كانت موحدة الى عهد قريب ثم تناءت الشقة بينها حتى في الاقليم الواحد كما وقع بالنسبة للغة العربية ضمن مختلف القبائل منذ العهد الجاهلي

ونظرة على لائحة الابدال والمعاقبة بين الحروف العربية (المثبتة باخر البحث) تبرز لنا معيارا دقيقا لهذا التطور بالنسبة للغة العربية وهو معيار قد تنضبط مقاييسه الفطرية حتى على لغات ولهجات اخرى في اقاليم غير عربية .

وهكذا تولدت في خاطرنا ـ منذ ان اتصل تفكيرنا بهذه المعطيات المشتركة ـ نظرية كانت تتضح وتتبلور كلما امعنا في تتبع الامثلة العديدة التي لم نكن نختارها نحن بل كانت تترى في سيل عارم ملك علينا مشاعرنا في فترة وجيزة قضيناها في الاستعراض والتمحيص وقد اغتنمت فرصة وجودي بين مراكز الاستشراق وخبراء اللسنيات خلال شهر شتنبر المنصرم في بولونيا والاتحاد السوفياتي فعرضت الفكرة ـ خلال احاديثي ـ على ثلة من الاختصاصيين في اللهجات السامية ، وقد حاولت وضع مشروع ضوابط اساسية لهذه الفكرة ارجع اليها كقاعدة في البحث وكنت اترك لزملائي من المستشرقين الذين امكنني التحدث اليهم في الموضوع ـ حق انتقاء اللفظ الروسي او الفرنسي او الانجليزي الموضوع على المحك لاختبار مدى انطباق القاعدة عليه وكانت النتيجة في معظم الحالات ايجابية الى حد بعيد كما يتضح من الامثلة المعروضة هنا في غير ترتيب .

(4) Auteur de la « Catégorie du duel dans les langues indo-européennes et chamito-sémitiques ».

نمـاذج لوحـدة اللغـات

فنحن نسرد هذه النماذج كما اقترحت علينا ونستثني منها الدخيل الاجنبي الذى شهر فى العربية او العكس (وان كان لنا نظر فى ذلك قد سبقنا اليه صديقنا العلامة عبد الحق فاضل فى سلسلة ابحاثه القيمة حول التاثيل والترسيس (5).

ونؤكد هنا انه **يجب الارتكاز فى نظريتنا هذه على دراسة الحرفين الجذريين فى الكلمات المتشابهة واعتبار ضوابط اساسية سنشير اليها عند الاستعراض غير ان الجذر يكون فى الغالب ثنائيا اي يحتوي على حرفين متشابهين . وان كان التماثل قد يصل الى ثلاثة احرف ، وقد ينزل احيانا الى حرف واحد .**

فنظف مثلا تقابلها فى الفرنسية nettoyer (واصلها net وقد وضعت فى القرن الثاني عشر الميلادي واقتبست منها كلمة net اي واضح اوصاف) ، كما تقابلها فى الروسية كلمة natirat

والجذر الثنائي فى هذه الكلمات هو نـط (باعتبار ان الطاء فى العربية تتعاقب مع الظاء كقول العرب شطي الميت وشظى اذا انتفخ فارتفعت قوائمه) .

نـظ = نـط = nat = net

اما التشابه مع الانجليزية فانه يتجلى فى مرادف اخر لكلمة نظف وهو صفى التى يقابلها فى الانجليزي :

صـفـى = nettoyer = to swab
صـف = swa

ولهذا وجب قبل التنظير والمقارنة استقصاء المترادفات فى كل لغة .

ونضرب لهذا مثلا اخر بمترادفين عربيين هما زفن ورقص حيث تقابل كلمة زفن بكلمة danser فى الفرنسية و tantzewat فى الروسية و danzar فى الاسبانية و to dance فى الانجليزية على اساس : زن ـ نز = ns

(القلب يكون من السهل الى الاسهل)

ونورد مثالين اخرين لابراز اهمية التعرف على المترادفات :

فالكلمة الاولى هي نور يقابلها فى الفرنسية كلمتان هما lumière و lueur فاذا انقلبت نور (طبقا لمبدأ التعاقب بين اللام والنون مثل زجل وزجن واصيلال واصيلان وحالك وحانك) .

اصبح : نور = لور = lueur
(وهو يتفق والكلمة اللاتينية الشعبية lucere)

وبهذه المناسبة لاحظ علينا احد المستشرقين الروس ان القاعدة لا تنطبق هنا على المقابل الروسي وهو Svet (تنطق Sviet مع تخفيف حرف V) فعقبنا على ذلك بان لكلمة نور مرادفا هو ضياء لقول الله تعالى « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا » (وان كانا يختلفان من حيث القوة) ولهذا صـار

ضيـاء = صيـاء = صيـات Siat = Sviet
(صـى = sie)

(وقد عاقب العرب الضاد والصاد فى مثل مض الرمانة ومصها ومناض ومناص ودحض المذبوح برجله ودحصه اذا حركه وتضاف الناس وتصافوا الخ) وما زالت كثير من الاقطار الاسلامية فى آسيا الوسطى تسمى الحوض حوصا)

اما الكلمة الثانية فهي زهر ومرادفها هو نور (بفتح النون) الذى تقابله فى الفرنسية كلمة fleur (التى كان ينطق بها flor او flour فى القرن الثاني عشر الميلادي) وفى الانجليزية flower وفى الاسبانية flor وفى اللاتينية flos (التى اعطت floris)

ولناخذ الآن كلمة عبر فانها مؤلفة من العين والباء والراء فاذا اعتبرنا ان الباء تعاقب اللام فى العربية (مثل قطع وقطل وصقل به الارض وصقمها اي ضربهـا) .

---

(5) راجع مجلة «اللسان العربي» (وخاصة منها العددين الثالث والخامس)

اصبحت الحروف : لبـر = بـرل = prl ومنها parler في الفرنسية و (habra = habla) في الاسبانية parabola في اللاتينية و gavorit (b = v) في الروسية والكلمة تختصر (abarit) في حين تساوقت الكلمة الانجليزية to talk مع مقابل عربي داخر هو نطق (نطق = طنق = طلق talk)

ومنها لسان طلق وطلاقة اللسان بمعنى فصاحة القول

وترمز الثنائية الجذرية في حرفي طس (مثلها طش نظرا للتعاقب بين السين والشين في مثل اسدف واشدف الليل اذا اظلم) الى السقوط واحيانا الى السقوط مع تشتت وتفرق (طش تقابلها بالفرنسية chute وبالانجليزية shut down وتعبر لفظة طش في العامية المغربية عن هذا المعنى واصلها من طشت السماء اذا امطرت ومن الطشاش وهو الرشاش) ومن ذلك شتاء اي مطر هاطل (س = ت في مثل قول العرب النسات والناس والتكين والسكين) يقابلها في الروسية tetch وفي الاسبانية salto (المتضمنة لـ : sat) . ولا نطيل في هذا السياق فان القلم اذا سار على هذه الوتيرة عسر عليه حصر المادة لاسيما اذا قارنا نفس الكلمات مع مرادفاتها في لغات مختلفة . وقد ايد احد المستشرقين الروس هذه الامثلة ملاحظا ان هذا التساوق بين هذين الحرفين الجذريين وبين فكرة السقوط والتشتت قد يوحي الى خبراء اللسنيات بفكرة اخرى هي امكانيات وجود اصول جذرية موحدة غير مدروسة لحد الآن في كثير من اللغات والتي تتجلى في سعة مدى تفاريع الجذر الثنائي في مثل : « قب » فانه يرمز الى كل ما يعقد او يصنع مقوسا او محدودبا مثل :

قبة = coupole (بالفرنسية) cupula (الاسبانية) cupola (الانجليزية)
قبو = alcove (بالفرنسية والانجليزية) alcove (روسية) alcoba بالاسبانية
قبعة = chapeau (ف) chopka (ر) copc او capelo (ا)
قب = cap = capuchon (انج) capuchon او capucho (ا) الخ

ولنشر بانتضاب الى بقية الامثلة المعروضة علينا فنقول :

— مشى : يقابلها marcher بالفرنسية marchirovat بالروسية و marchar بالاسبانية و to march بالانجليزية .

اما المشي الخاص للتعقب كالمطاردة مثلا : فقد اعطى في الانجليزية to tread طارد
— سال يقابلها في الفرنسية couler على اساس ان ك = C = s في الفرنسية (مثل civil و celeste) اعتبارا لكون السين تعاقب الصاد في العربية والصاد تستبدل بالكاف مثل وصب ووكب على الامر اذا واظب عليه ومك العظم ومصه بمعنى) . كما ان قبيلة ربيعة تجعل غالبا الكاف المؤنث شينا كما قال الشاعر يصف الغزالة :

فعيناش عيناها وجيدش جيدها
سوى ان عظم الساق منش دقيق
(يريد عيناك وجيدك)

— ملجأ ومرادفها معزل وهما يقابلان كلمة asile (بالفرنسية) و asilo (الاسبانية) و asilus (بالانجليزية)
— مضغ يقابلها mâcher ومنها تفرعت مصطكا mastiquer, mastic (ومعلوم ان الصاد تعاقب الضاد نحو مص ومض وحصب وحضب في معنى حطب)
— سار يسير سير circuler (ف) و tsircoulirovat (ر) و circular (ا) و to circulate (انج) .
— عشاء بالروسية pitsicha (عشاء = اشاء = itcha) غداء = eda (بالروسية ايضا)

اما صيغ الافعال في اللغات فقد لاحظنا مثلا ان تاء الخطاب ونون المتكلمين وياء الغائب او الغائبين متشابهة كقولك : تفعل tu fais ونفعل nous faisons ويفعل (il fait ou ils font) (ي = i = il في الفرنسية نحو briller الخ)

كما ان كلمات الايجاب والنفي موحدة في كثير من اللغات :

اي = si = ya = yes = oui
(باضافة s في الاسبانية)